المحاضرة الثانية عشر	السجنيات في النص الشعري القديم	أبو فراس الحمداني/المعتمد بن عباد/ابن زيدون

مراجع المحاضرة:

م.م. ستار عبد الله جاسم هيكلُ القصيدةِ في روملياتِ أبي فراس الحمداني ، **كلية الاداب / جامعة الكوفة**،مجلة القادسية للعلوم الإنسانية،المجلد الحادي عشر : العدد 4 / 2008م.

أسماء بدر محمد العوادي ، قيس حمزة الخفاجي المرجعيات الدينية للصورة الحسية في شعر السجون الاندلسي ،مجلة جامعة بابل،العلوم الانسانية،المجلد22،العدد6، 2014

في مفهوم شعر السجون(مقاربة في المرجع واللغة):

يولد شعر السجون من رحم تجارب فريدة يمر بها الشعراء وهي تجربة الاسر، وفي خضم مرحلة الاسر هذه تجئ القصائد السجنية حاملة نبرة الألم،والغياب والفقد والفجع وغيرها من معاني الاستعطاف .وهكذا جاءت قصائد أبي فراس[1] (الروميات) أي التي قالها في بلاد الروم، إذ كانت المرحلة التي مر بها الشاعر شديدة الالم فيها مرارة الانكسار وغربة الدار وذل الاسر وألم الجراح والفراق فضلا على أن تأخر المفاداة قد ألهب احاسيس الشاعر وعواطفه. يقول في مطلع الرائية:

أَراكَ عَصِيَّ الدَمع شيمَتُكَ الصَبرُ أَما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ[2]

يتميز هذا المطلع بوجوه عدة ؛إذ يبدأ بفعل مضارع للدلالة على حيوية الفعل بدلالته على الحال والاستقبال وهي ليست رؤية بصرية اعتيادية بل رؤية قلبية مجازية ترصد دمعاً عصّياً وصبرا تتسم فهذا به تلك الشيمة، ثم

(1) أبو فراس الحمداني هو الحارث بن سعيد بن حمدان، ولد سنة (320هـ) اشتهر بكنيته (أبي فراس) أي الأسد، تجمعه قرابة مع سيف الدولة الحمداني فهو ابن عمه، ولّاه سيف الدولة منبج وحرّان، استيقظت فيه شاعريته منذ مطلع الشباب، فاتجه بها الى الغزل والفخر باسرته والاعتداد بها، كان شجاعا، أبي النفس، سليم الطبع كريم الخُلق، قوي الحجة، نظر في ترجمة أبي فراس: وفيات الاعيان: 127/1، تهذيب ابن عساكر: 493/3، شذرات الذهب:24/3، يتيمة الدهر: 22/1..

(2) الديوان: 63.

يعقب ذلك باسلوب استفهامي يشد المتلقي ويحفزه ويشوقه الى الابيات الاخرى من القصيدة، فضلا عن ان هذا المطلع يلقي ضوءا نافذا الى جو القصيدة برمتها وهذا ما يلحظ من بعض الفاظ هذا المطلع ومنها (الدمع – الصبر– الهوى– الامر– النهي)، وربما يأتي في السياق نفسه مطلع قصيدته العينية :

أَبى غَربُ هَذا الدَمعِ إِلّا تَسَرُّعا وَمَكنونُ هَذا الحُبِّ إِلّا تَضَوُّعا[1]

ولكن الاختلاف هنا ان الدمع لم يعد عصّياً بل اصبح ذليلا اما الحب فشاع بعد ان كان مكنونا. اما الصبر الذي كان فقد ولى ولم تبق منه بقية .

إن ما تتسم به مطالع الروميات أنها مشحونة باحاسيس وخلجات شعورية، لايستطيع الشاعر الانتظار طويلا الى ان يعبر عنها لذلك نراه يكشف عن جزء كبير منها في مطالعه من ذلك مطلع قصيدته اللامية .

يا حَسرَةً ما أَكادُ أَحمِلُها آخِرُها مُزعِجٌ وَأَوَّلُها[2]

فالحسرة عنده –هنا– متجسدة قد اثقلت كاهله المتعب، فنراه ((يدخل في صميم الموضوع مباشرة لانه لو كان هناك مطلع اخر لاضعف موضوعه الذي يريد به ان يصل الى قلب سيف الدولة وصولا سريعا))[3].

أبو فراس من منظور نقدي[4]:وقد أثارت روميات أبي فراس جملة من الآراء قديما وحديثا نذكر منها:

من آراء القدامى:

يقول الصاحب بن عباد: ((بُدِىء الشعر بملك وخُتِمَ بملك يعني امرأ القيس وأبا فراس))[5].

---

(1) م.ن: 107.

(2) م.ن: 132.

(3) دراسات في النص الشعري – العصر العباسي: 222.

(4)في سنة 351هـ أسرَ الروم شاعرنا في معركة غير متكافئة عندما كان راجعا في مجموعة من اصحابه من الصيد فإذا بكمين رومي قد نصَّبه له احد القادة الروم، وقاتل الشاعر الامير وحده حتى جرح واصابه سهم في فخذه، فأخذ اسيرا وتأخر سيف الدولة عن مفاداته وبقي في الاسر اربع سنوات كانت قاسية مؤلمة جدا عليه ، والاقوال في سبب تأخر سيف الدولة عن مفاداة أبي فراس كثيرة – ولسنا بصدد بحثها– إلا انها تحمل مدلولا يكاد يكون واحدا للشاعر هو شعوره باهمال سيف الدولة له .ينظر: م.م. ستار عبد الله جاسم هيكلُ القصيدةِ في روميات أبي فراس الحمداني ، كلية الاداب / جامعة الكوفة،مجلة القادسية للعلوم الإنسانية،المجلد الحادي عشر : العدد 4 / 2008م

(5) يتيمة الدهر: 22/1.

يقول الثعالبي (429هـ): ((والروميات التي رمى بها الشاعر هدف الاحساس واصاب بها شاكلة الصواب ولعمري انها كانت كما قرأت لبعض البلغاء لو سمعته الوحش أنست او خوطبت به الخرس نطقت او استدعي بها الطير نزلت))[1]

آراء المحدثين:

يقول الدكتور شوقي ضيف: ((وخير أشعاره جميعا روملياته التي نظمها في أسره وهي تلتظ بالحنين الى الاهل والشكوى من الدهر والرفاق))[2] في حين ذهب الدكتور **محمد مهدي البصير** إلى : ((انها لباب شعره وصفوة انتاجه وقد تحدث فيها عن نكبته في مختلف مراحلها))[3].

ويقول **الدكتور زكي مبارك**: ((كن كيف ما شئت من قوة القلب ثم اقرأ روميات أبي فراس فستعرف ان القوة الانسانية بحاجة الى من يسهم في تهذيبها))[4] ويقول ايضا: ((وما قرأت روميات ابي فراس إلا وتمثلت زوال الجبال وتمثلت عنفوان الفارس الفاتك الذي قضت الاقدار بان يمسي وهو في ظلمات من ذل الاسر وهزيمة القلب والروح))[5].

يقول **الدكتور مصطفى الشكعة** في ذلك: ((وانه ليدهشنا كثيرا ان تخلو كبريات المؤلفات النقدية الباكرة مثل الوساطة والعمدة من التوفر على دراسة أبي فراس وزملائه واقتصارها على العناية بالمتنبي))[6]

الحس المأسوي في شعر المعتمد بن عباد:

ومن السجنيات كذلك نجد أشعار المعتمد بن عباد، حيث بعد أن دَبَّ خِلَافٌ بَيْنَ مُلُوكِ الطَّوَائِفِ سَقَطَ عَلَى إِثْرِهِ الْمُعْتَمِدُ عَنْ مُلْكِهِ وَأُخِذَ أَسِيرًا هُوَ وَعَائِلَتُهُ، فَإِذَا هُمْ يَعِيشُونَ لَاجِئِينَ صَاغِرِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُلُوكًا عَالِينَ، أُودِعَ على إثرها ابن عباد فِي سِجْنِ أَغْمَاتَ –قَرْيَةٌ فِي الْمَغْرِبِ–، بَقِيَ ابْنُ عَبَّادٍ فِي ظُلُمَاتِ السِّجْنِ مَأْسُورًا، ذَاقَ فِيهِ حُشُونَةَ الْحَصِيرِ، بَعْدَ أَنْ كَانَ يَتَقَلَّبُ عَلَى بِسَاطِ الْحَرِيرِ، تَحَوَّلَ مِنْ حَاكِمٍ يَأْمُرُ وَيَنْهَى إِلَى مَأْسُورٍ يَرْحَمُهُ النَّاسُ، وَيَعْتَبِرُ بِهِ الْغَيْرُ، بَقِيَ الْمُعْتَمِدُ فِي أَسْرِهِ أَشْهُرًا، لَمْ يَزُرْنَهُ بَنَاتُهُ وَلَا زَوْجُهُ، حَتَّى كَانَ أَوَّلُ لِقَاءٍ فِي يَوْمِ

(1) يتيمة الدهر: 30/1.
(2) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: 352.
(3) في الادب العباسي: 399.
(4) الموازنة بين الشعراء: 307.
(5) م.ن: 306.
(6) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين: 524.

عِيدٍ، دَخَلْنَ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ، الَّذِي يَتَجَمَّلُ فِيهِ النَّاسُ، فَرَأَى ثِيَابَهُنَّ رَثَّةً، وَهَيْئَتُهُنَّ كَسِيرَةً، فَصَدَعْنَ قَلْبَهُ وَأَحْرَقْنَ فُؤَادَهُ، فَهَاجَتْ نَفْسُهُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ:

فِيمَا مَضَى كُنْتَ بِالْأَعْيَادِ مَسْرُورًا * وَكَانَ عِيدُكَ بِاللَّذَّاتِ مَعْمُورًا**

وَكُنْتَ تَحْسَبُ أَنَّ الْعِيدَ مَسْعَدَةٌ * فَسَاءَكَ الْعِيدُ فِي أَغْمَاتَ مَأْسُورًا**

تَرَى بَنَاتَكَ فِي الْأَطْمَارِ جَائِعَةً * فِي لِبْسِهِنَّ رَأَيْتَ الْفَقْرَ مَسْطُورًا**

مَعَاشُهُنَّ بَعْدَ الْعِزِّ مُمْتَهَنٌ * يَغْزِلْنَ لِلنَّاسِ لَا يَمْلُكْنَ قِطْمِيرًا**

بَرَزْنَ نَحْوَكَ لِلتَّسْلِيمِ خَاشِعَةً * أَبْصَارُهُنَّ حَسِيرَاتٍ مَكَاسِيرَ**

يَطَأْنَ فِي الطِّينِ وَالْأَقْدَامُ حَافِيَةٌ * كَأَنَّهَا لَمْ تَطَأْ مِسْكًا وَكَافُورًا**

وَكَمْ حَكَمْتَ عَلَى الْأَقْوَامِ فِي صَلَفٍ * فَرَدَّكَ الدَّهْرُ مَنْهِيًّا وَمَأْمُورًا**

مَنْ بَاتَ بَعْدَكَ فِي مُلْكٍ يُسَرُّ بِهِ * فَإِنَّمَا بَاتَ فِي الْأَحْلَامِ مَغْرُورًا**

لقد أحال القدر المعتمد من ملك ضحكت له الليالي الى أسير أبكته بوحشتها مكبلاً بالقيود فلم يجد إلا الصبر سلوا له ولا قدر على احتماله فيقول: (1).

يقولون صبراً لا سبيل الى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

ونجد في البيت مفارقة واضحة عند الشاعر فحين يطلب منه أن يصبر يفاجئ الشاعر بمفارقة في قوله (لا سبيل إلى الصبر) وفي ذلك انتقال من مرجعية الدينية إلى مرجعية اجتماعية استلها الشاعر من واقعه المعيش داخل المجتمع. وكذلك نرى المعتمد بن عباد يردد جملة على ألسنة المسلمين حين الوقوع بلجة الخطأ قائلين (استغفر الله) فيقول واصفا حالة في الأسر: (2).

أسر وعسرٌ ولايسر أؤمله استغفر الله كم لله في نظر

مقتبساً قوله تعالى "وَاسْتَغْفِرِ اللّهَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ". (3).

وفي قول المعتمد بن عباد: (1).

---

(1) ديوان المعتمد بن عباد, ملك اشبيلة,د.حامد عبدالمجيد,د.أحمد أحمد بدوي,راجعة:د.طه حسين , مطبعة دارالكتب المصرية القاهرة ,ط1430,5هـ-2009م: 299.

(2) النساء/ 106.

(3) ديوان المعتمد بن عباد: 195.

تسير إلى أرض بها كنت مضغةً وفيها اكتست باللحم منك عظام

اقتباس من قوله سبحانه تعالى" وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ". (2).

وكذا لفظة (مضغةً) التي وردت في القرآن اكثر من مرة في قوله تعالى " ثُمَّ خَلَقنا النُّطفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المضغَةَ عِظَماً فَكَسْونا العِظَمَ لَحْمَا ثُم أَنشَأنَهُ خلْقاً إخر فَتَبارَكَ اللهُ أَحسَنُ الخِلقين". (3).

ابن زيدون و الملفوظات النفسية:

ومن شعر السجون ما نجده في ديوان ابن زيدون (4)يقول في ظل محنة السجن مضمّنا اشعاره المضامين القرآنية واتحد مع رموزه، لتعظيم صورته لدى ابن جهور،ولتزيد رقة استعطافه ويقرب صورة مأساته بعد أن قادته المحنة الى غياهب السجن. فإحدى صوره في مدح بن جهور بنيت على اية التطهير، إذ يقول: (5).

هي الرّجسُ أن يذْهبهُ عنه فمحسنٌ شهيرُ الايادي ما لالائه جحد

وفي ذلك اشارة إلى قوله تعالى " إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً". (6).

حيث ألبس الشاعر (ابن زيدون) على ممدوحه ابن جهور صفة (الطهر) مستعيناً بلغة القرآن وجمالها فكان من براعته الشعرية وتمكنه في بناء شعره أن اتكأ على الفاظ القرآن في ذلك فكان أن قيل في شعره إن " جمال ديباجته ورقة معانيه وجمال صوته وحسن النغم وملاحة الأداء جمع فيها الحسنيين" (7) لذا فإن حساده كثروا فوشوا به حتى انتهى المطاف إلى السجن.

ومن ذلك أيضا قول ابن زيدون مستعطفا سبحانه (8).

---

(1) البقرة/ 259.

(2) المؤمنون/ 14 و الحج/ 5.

(3) المغرب في حلى المغرب: 212/1.

(4) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، مِن شعراء عصر ملوك الطوائف في الأندلس، وُلدَ في رُصافة قرطبة في العام 394هـ من أسرة مرموقة ذات عِلمٍ وجاهٍ وغِنى، ونشأ فيها، وكان له نصيب من السياسة والسفارة والوزارة، في ظل الدولتين الجَهوريّة في قرطبة والعبّادية في أشبيلية، كما كان له النصيب الوافر من السجن في قرطبة حيثُ هربَ إلى أشبيلية، والنصيب الأوفر من الحب حيث ولاّدة بنت المستكفي، وعلاقات لا حصرَ لها بأعيان عصره، حيث صار له حُسَّاد وخصوم وأنصار ومريدون، فأحاطتْ بحياته الحوادثُ الجِسام، وتنوَّعت التجارب، فكثرَ في شعره الغزل والمديح والرثاء والاستشفاع والهجاء والإخوانيات، فضلاً عن الوصف. توفي في أشبيلية في العام 463 هـ. نفح الطيب: 627/1

(5) ديوان ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله، تح: كرم البستاني، دار صادر، بيروت، 1960م: 362.

(6) الاحزاب/ 33.

(7) الشعراء وانشاد الشعر،علي الجندي، القاهرة، دار المعارف، بمصر، (د.ط)، 1967م: 61.

(8) ديوان ابن زيدون: 125.

نارُ بغي سرى إلى جنّة الأم ـن فأصبحت كالصريم .

بأبي أنت، إن تشأْ تكُ برداً وسلاماً كنار إبراهيم

يشير ابن زيدون في البيت الأول الى قوله تعالى " فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ # فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ " (1).

وفي البيت الثاني يشير الى قوله تعالى: " قالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ # قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ". (2).

فالشاعر يفدي أبا الحزم بن جهور بأبيه ويقول له: إنك تستطيع أن تحسن إلي بتحويل نكبتي الى جنة، مثلما كانت النار برداً وسلاماً على سيدنا إبراهيم (عليه السلام).

وكذلك نجد ان زيدون مستعطفا بقوله: (3).

هل الرياح بنجم الارض عاصفةٌ؟

أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟

ما للذنوب– التي جاني كبائرها

غيري– يحملني اوزارها وزري؟

مقتبسا لشكواه من قوله تعالى: " ولا تكسبُ كلُّ نفسٍ إلا عَليهَا ولاتَزرُ وَازرَةٌ و زرَ أخْرى" (4).، ليكسب حجته في رفع الحيف والظلم قوة.

وله ايضاً: (5).

اتدنو قطوفُ الجنتين لمفشر

وغابة السدر القليل أو الخمط؟

وعبر عن النعيم الزائل بالجنتين اللتين يتمتع بهما حساده ولم يتركوا له سوى السدر القليل، وقد استوحى ذلك من قوله تعالى:"بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل" (1) ابدلت الجنتين الاولى بأكل خمط

---

(1) القلم/ 19-20.

(2) الأنبياء/ 68-69.

(3) ديوان ابن زيدون : 254 – 255.

(4) الانعام/ 164.

(5) ديوان ابن زيدون: 290.

أي غير مأكول، بسبب السيل الغرم الذي أصاب جنتيهم بالأذى (2).فوجد أن هذه الآية موافقة في تعظيم مأساته وتصوير عمق الاسى والحزن في نفسه، فبرز مقصده في الاتكاء على المضمون القرآني. كل هذه الأحداث تعد عبرة وتأسياً لابن زيدون وهو في السجن يقاسي مرارته، إذ يقول(3)

ألمْ يأنِ أن يبكي الغمام على مثلي؟

ويطلب ثأري البرق منحلت النَّصل ؟

أمقتولة الأجفان! مالك والها؟

ألم تُركِ الأيامُ نجماً هوى قبلي؟

اقلي بكاءً لستِ أولَ حُرةٍ

طوتْ بالأسى كشحاً على مضض الثكلِ

وفي (ام موسى) عِبرةُ إذ رَمَتْ به

الى اليمِّ في التابوت فاعتبري واسلي

لعل المليك المجمل الصنعِ قادراً

لهُ بعد يأسٍ سوف يُجْعلْ صنعًا لي

فالشاعر عندما يتذكر حال الأم التي تلقي بابنها في البحر بيدها ليلاقي مصيره تهون عليه حال، ليس هذا فقط وإنما يخبرها. الله تعالى، كما جاء في الآية انه سيأخذه عدوٌ لي وعدوٌ له، إنه إتمام للحالة الصعبة التي وصفت بها أم موسى والثانية مقارنة الشاعر نفسه في ظلمات السجن مع موسى داخل التابوت في البحر فإذا كان لهذا الضيق من مخرج وان الله تعالى حفظ موسى من المخاطر وأعاده الى أمه، فلعل الشاعر يجد مخرجاً بعد أن يصفح عنه ابن جهور ويطلق سراحه (4). ومن شكواه وبث لواعجه وما ينتابه في السجن من مشاعر يستعين بقصة موسى في موضوع السامري ومعاقبة الله له بعدم الاختلاط بالناس وملامستهم له، وموضوع ضرب الحجر بعصاه

---

(1) سبأ/ 16.

(2) ينظر: تفسير الجلالين الميسر، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، حققه وعلق عليه: د. فخر الدين قباده، ط1، 2003: 22/ 430.

(3) ينظر:أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلس- منذ الفتح وحتى سقوط الخلافة 92- 422هـ: 119-120:

(4) الاعراف/ 160.

وانبجاس اثنتي عشرة عيناً منه في قوله تعالى: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ " (1)يقول ابن زيدون: (2)

ما على ظنّي باسُ يَجْرحُ الدَّهرُ ويَاسُو

ربُّما أشرق بالَمْر ء على الآمال ياسُ

ما ترى في معشر حالوا عن العهد وخاسوا

ورأوني سامريا يتقى منه المسَاسُ

اذؤبٌ هامت بلحمي فانتهاش وانتِهاسْ

كلهم يسألُ عن حا لي، وللذئب اعتساسُ

ان قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس

إن هذه الاشارة الصغيرة تختزن المعنى القرآني بلباقة تغني عن التفصيل، فعصا موسى التي فجرَّت من الحجر ماءً بإذن الله تعالى يستعين بها أكثر من شاعر في موضوعات مختلفة.

خاتمة: لعلنا لا نجانب الصواب من خلال النماذج السابقة إذا قلنا إن الشِّعر بالنسبة لشعراء السجون بتعبير حسن منصور أحمد سوركتي، ود. خالد علي إدريس يمثل تعزية النفس عن المصاب الذي حلّ بهم ، لذا تناولوا في التعبير عن واقع السجن موضوعات متعددة ، دارت حول تجربة السجن الرهيبة ، وحول واقعهم داخل هذه السجون ، وما تركه في نفوسهم من آثار كانت سلبية في الغالب .معظم شعر السجون يدور في فلك الشكوى والعتاب ، أو وصف المأساة التي يعانون منها ، والحديث عن الذكريات مع المقارنة بين الماضي والحاضر ، ثم الشوق إلى أرض الوطن والأهل والأحبة ، وتناولول كذلك الاستعطاف والاسترحام ، مذبذبين بين أمل العودة واليأس والهلاك ، ثم ما خرجوا به من هذه التجربة المريرة التي شكلت وجدناتهم وغيرت مجرى حياتهم.

(1) ديوان ابن زيدون: 273.

(2) ملحق تاريخ الأدب الأندلسي– عصر سيادة قرطبة: د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1969م. 97.